الإنسان المسلم في شعر محمد إقبال

الأستاذ كمال جحيش

جامعة الأمير عبد القادر

عندما يعرف محمد إقبال بتعريف موجز عادة ما يقال: هو شاعر الإسلام، وهو كذلك بحق، فكل شعره ونظمه كان إما تمجيدا للإسلام أو إيقاظا للمسلمين وتحذيرهم من أعدائهم، وله في هذا الشأن قصائد مشهورة صارت أنشودة المسلمين في جميع أنحاء العالم، منها: الشكوى، جواب الشكوى والصين لنا والهند لنا وغيرها من القصائد التي يجد فيها القارئ عاطفة دينية مشبوبة مصحوبة برغبة عارمة في رؤية المسلم سيدا عبدا.

فليس غريبا بعد هذا إذا رأينا إقبالا يسخر شعره لهذه المهمة، بل إن هذه القضية هي محور فلسفته كلها سواء عبر عنها بالشعر أم بالنثر، لكن تعبيره عنها بالشعر كان أبلغ وأوقع في النفس، وهو في ذلك يجاري الشعراء؛ خاصة الشعراء الصوفية منهم، من أمثال مرشده جلال الدين الرومي[1]، فريد الدين العطار[2] ومحمود الشبستري[3] وغيرهم. وقد اصطنع إقبال الشعر وسيلة مثلى للتعبير عن مشاعره وحتى عن أفكاره أيضا في كل شان يخص المسلم.

-ين نظر إقبال إلى مسلم هذا العصر رآه إنسانا نكرة، وقد أنهكه القدر[4] دون الأمم الأخرى لكنه في مقابل ذلك كان يرى فيه الأمل لإنقاذ البشرية مما هي فيه من تخبط، وذلك في نظره مرتبط بتحقق مجموعة من الشروط.

وفي هذه العجالة نريد أن نستعرض موقف إقبال من إنسان هذا العصر (الإنسان الغربي الذي يقود البشرية)، وكيف أنه لم يعد لديه ما يقدمه للإنسانية، ثم نعرج على

1- أحد أكبر الشعراء الصوفية، ولد سنة 604 وتوفي سنة 672 أهم آثاره: المثنوي.

2- من كبار الشعراء الصوفية الرمزيين توفي سنة 627 هج.

3- توفي سنة 720هج تأثر به إقبال خاصة في منظومته روضة الأسرار.

4- يقصد الفهم الخاطئ للقدر الذي أشاعه الصوفية.

تقديم صورة المسلم في هذا العصر وكيف أنه غائب عن إسلامه وعصره، وكذلك ما يطلب من المسلم أن ينجزه وشروط ذلك، على أن نتوخى في كل هذا ترك النصوص الشعرية تنطق بالمقصود وما دورنا في ذلك إلا التنسيق والتبويب.

ولقد وددت سوق ملاحظتين لأهميتهما في هذا المقام، قبل الخوض في القضايا السابقة، وهاتان الملاحظتان هما:

أولا: إن الشعر والنثر عند محمد إقبال يؤديان مهمة واحدة، لذلك نجده يعبر أحيانا عن فكرة معينة بالنثر وأحيانا يعبر عنها بالشعر، وهما عنده يهدفان إلى غاية واحدة والى تأدية رسالة واحدة، يقول في هذا الشأن في ديوانه "رسالة الخلود": "لقد قلت كلمتين لمزاج عصري، فجمعت البحرين في إناءين: كلمة تتسم بالتعقيد وكلمة لها وخز الإبر كي أتصيد عقول الرجال وقلوبهم"[1]، وهو يعني بالإناءين هنا: إناء النثر، ويضم ما كتبه نثرا بالإنجليزية، خاصة كتابيه: "تطور الميتافيزيقا في بلاد فارس"[2] و"تجديد التفكير الديني في الإسلام"[3] وإناء الشعر ويضم سائر دواوينه الشعرية، يقول عن هاتين الكلمتين: "كلمة ذات عمق بأسلوب الإفرنج، ونواح ثمل من وتر الرباب"[4].

ثانيا: إن شعر إقبال يحتاج القارئ كي يفهمه ويتذوقه إلى ثقافة إ سلامية واسعة في القرآن الكريم والحديث الشريف والتاريخ والسير والفلسفة والتصوف، بالإضافة إلى الإلمام بالثقافة الغربية خاصة الأدب والفلسفة، حيث إنه كثيرا ما يضمن شعره آيات من القرآن الكريم[5]، ويجعل آيات أخرى عناوين لبعض قصائده، كما يكثر في شعره من إيراد أسماء الأنبياء مثل محمد، إبراهيم الخليل وموسى عليهم الصلاة والسلام وكذلك الشأن بالنسبة للفلسفة والتصوف حيث يكثر من إيراد المذاهب وأسماء أصحابها ومصطلحاتها، وهذا فضلا عن إشاراته المتكررة إلى أقطاب الفلسفة وأعلام الأدب في الغرب.

1- محمد إقبال، رسالة الخلود. ترجمة: محمد السعيد جمال الدين، القاهرة: مؤسسة سجل العرب 1974 ص 326.

2- هذا الكتاب أطروحة تقدم بها إقبال إلى جامعة سنة 1908 لينال به إجازة الدكتوراه.

3- مجموعة محاضرات ألقيت في جامعات ألقاها في جامعات مختلفة في الهند صدرت في كتاب سنة 1928.

4- رسالة الخلود، ص: 326.

5- لمزيد حول هذا الموضوع انظر: حسين مجيب المصري، إقبال والقرآن، القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية 1978.

1- موقف إقبال من إنسان هذا العصر: إنسان هذا العصر عند إقبال هو الإنسان الغربي الذي يتولى قيادة الإنسانية في هذه الحقبة من التاريخ وكل من يسير على نهجه في الحياة، وهذا الأنموذج كثيرا ما يبدي إقبال يأسه منه، حيث يراه أسير اللون والرائحة[1]، ولا يعرف للقلب طريقا، ولا للعشق معنى، يقول في ديوانه رسالة الخلود على لسان "تولستوي"[2] وهو يقص رؤيا رآها: "وسط جبال الموتات السبع واد قاحل لا طير فيه ولا أغصان ولا أوراق، يتحول ضياء القمر بفعل الدخان المتصاعد منه إلى ما يشبه النار، وتموت الشمس ظمأ في أفقه بفعل الحرارة الشديدة المنبعثة منه. وثمة نهر من الزئبق يجري وسط ذلك الوادي، وينعرج مجراه كما تنعرج مجموعة النجوم المعروفة بدرب التبانة في السماء، المرتفعات والمنخفضات أمامه لاشيء، ما أسرع جريانه، موجة فوق موجة، ثنية فوق ثنية، وفي النهر رجل غارق إلى خاصره يتفوه بآلاف الآهات التي لا أثر لها، لا نصيب له من السحاب والرياح والماء، يتحرق شوقا إلى الماء ليطفئ ظمأه، ولكن ليس في النهر سوى الزئبق. ورأيت على الشاطئ فتاة بديعة القسمات ساحرة النظرات، عينها تقطع الطريق على مائة قافلة، تعلم الكفر لرهبان الدير، وفي سحرها قوة من شأنها أن تظهر الخير في صورة الشر والشر في صورة الخير، فسألتها من أنت وما سمك أيتها الحسناء ؟ من هذا الذي كله نواح وبكاء ؟ قالت: اسمي إفرنجين، وصنعتي السحر، ويتجلى في عيني سحر السامري"[3].

وإقبال هنا يرمز بالزئبق إلى الغنى والثراء، والرجل الغارق هو الإنسان اليهودي الولوع بالذهب والثروة ومن على شاكلته، لكن هذا الرجل وهو يكتوي بنار اللهث وراء الذهب والفضة يتفوه بآلاف الآهات تذمرا، ويستغيث طالبا الماء الذي هو رمز حياة الإيمان، أما الحسناء فهي رمز الحضارة الغربية؛ حضارة الإفرنج التي صَنعَتُها سحر الإنسان بالذهب.

فإنسان الغرب عند إقبال أسير حضارة مادية لا تولي اهتماما بالقلب، والمصرف فيها يرتفع فوق أعلى كنيسة، إنها تعرض القمح وتبيعه شعيرا، وبسببها يبيع البرهمي والشيخ وطنه، يقول فيها إقبال كذلك:

1- أسير الحس.

2- هو: ليو تولستوي (1828-1910)روائي وحكيم روسي عظيم من أعماله:الحرب والسلام.

3- رسالة الخلود ص 126.

"العقل والديهن ذليلان من مظاهر كفرك، العشق ذليل من أوجه تجارتك، لقد اخترت صحبة الماء والطين، لقد اختطفت الملا[1] من أمام الله، أيتها المخادعة إن موتك حياة لأهل العالم، انتظري وسوف ترين كيف تكون نهايتك[2].

وإقبال نراه هنا يعد إنسان هذا العصر نتاج الحضارة الغربية، هو إنسان تتجاذبه الملوكية [الرأسمالية] والشيوعية، الملوكية خراج [مال وثروة]، والشيوعية خروج [خروج عن الدين وكفر وإلحاد]،وإنسان بهذا الوصف لا أمل يرجى منه، ومن ثم لابد من إنسان جديد، فمن يكون هذا الإنسان؟ إنه عند إقبال ببساطة الإنسان المسلم.

2- صورة المسلم في هذا العصر: صدر إقبال ديوانه: "أسرار إثبات الذات"[3] بقطعة شعرية لجلال الدين الرومي يقول فيها:

"رأيت الشيخ بالمصباح يسعى له في كل ناحية مـــجال
يقول: مللت أنـــعاما وبـــهما وإنسانا أريد، فهل يـــنال
برمت برفقة خـــارت قـــواها برستمَ أو بحيدر اندمـــال
قلنا: ذا مـــحال. قد بـــحثنا قال: ومنيتي ذاك المـــحال"[4]

هذه القطعة تدل على تشوق إقبال إلى الإنسان الكامل الذي هو الإنسان المسلم، الإنسان الذي وصل إلى مقام العبودية "عبده"[5]، لكن مسلم هذا العصر عند إقبال شخص مفلس هو أيضا، وليس له ما يقدمه للإنسانية وهو على هذه الحال من بعده عن التوحيد الحق وخلو قلبه من حرقة العشق، يقول إقبال بهذا الشأن واصفا حال المسلم:

---

1 - يشير بالملا إلى علماء الدين التقليديين.

2 - رسالة الخلود ص128.

3 - نشر الشاعر هذا الديوان سنة 1915.

4- محمد إقبال، الأسرار والرموز. ترجمة :عبد الوهاب عزام، درسه وحققه وأكمل ترجمته نثرا: سمير عبد الحميد إبراهيم. ط2 دار الأنصار، القاهرة :1401، ص 3.

5- يشير إلى شعور المسلم المقرون.

"لم يبق الوهَج و لم تبق الحرارة في دمه الصافي
لم تنبت شقائق النعمان في حقله الخرب
فغمد سيفه فارغ كحافظة نقوده
وكتابه[1] في طاق منزل خرب[2]

لقد فقد المسلم حرارة الإيمان، وقلبه صار مثل الحقل الخرب، وما ذاك إلا لتخليه عن القرآن وتعاليمه، حتى أصبح أسير المادة بعيدا عن نبع الحياة الحقيقي، بعيدا عن القلب، يقول إقبال:

"جعل قلبه أسير اللون والرائحة
أفرغه من الذوق والرغبة والشوق
قل أن يعرف صفير مربي العقبان
فقد عود أذنيه على طنين البعوض"[3]
" باب القلب مغلق في وجهه
الذات لم تظهر في كف ترابه
ضميره خال من صوت التكبير
وحرمُ ذكره خاوٍ على عروشه"[4]

وهذا المسلم مع فراغ قلبه وخلوه من حرقة الشوق، فهو أيضا فارغ الجيب، يعيش في فقر، ولا يفكر في تحصيل الثروة، وكيف يفكر في ذلك وقد أضاع الثروة الحقيقية؛ ثروة الإيمان يقول في هذا الشأن:

"جيبه ممزق ويعيش دون أن يفكر في الرفاه
لا أعرف كيف عاش هكذا بلا أمل

1- يشير إلى هجران المسلم للقرآن.
2- م ن، ص 191.
3- م ن، ص 191.
4- م ن، ص 191.

ذلك المسلم الذي عاش بغير "الله هو"

ليس من نصيبه سوى الموت الناقص"[1]

وأي موت أشد من موت العزة والكرامة في نفسه، فصار يتقبل الذل والمهانة بعد أن فقد الثقة في نفسه يقول إقبال في هذا:

"المسلم خجل لأن رأسه عار من القلنسوة[2]

دينه مات، وانتهى فالخانقاه هي فقره

أتعلم أي ميراث لنا في هذه الدنيا ؟

إنه رداء لصوفي المنسوج من القماش الملكي"[3]

وبعد أن مات الدين في قلبه واحتمى برداء الصوفي غار نور الحق في عينيه يقول في هذا:

"عيناه خاليتان من النور والسرور

ليس في صدره قلب قلق

فليكن الله، في عون هذه الأمة

فسبب موتها أنها روح بلا حضور"[4]

وهذا الشخص بعد أن بعد عن الإسلام وخارت عزائمه خذلته سماؤه و لم تعد تمطر كسابق عهدها وساء طبع أرضه و لم تعد تنبت له قوته، يقول في هذا :

"لا تسلني عن أحواله كيف هي

فأرضه ساء طبعها كسمائه

صعب على الطائر الذي تربيه على التبن

أن يبحث عن الحبوب في الصحراء"[5]

1- م ن، ص 191.

2- القلنسوة في شعر إقبال ترمز إلى العزة والكرامة والثقة بالنفس.

3- م ن، ص 193.

4- م ن، ص 192.

5- م ن، ص 192.

ومسلم هذا اليوم ليس له من الإسلام إلا الأشكال والصور وهو مستعد لأن ينقلب عن دينه مقابل متاع قليل، يقول في هذا:

"متاع الشيخ ليس إلا أساطير قديمة
كلامه كله ظن وتخمين
حتى الآن إسلامه زناري[1]
وحين يصير الحرم ديرا يكون من براهمنته"[2]

ومسلم هذا اليوم لم يعد يحسن السجود لله وكأسه فارغة:

"وضعنا جبيننا لغير الله
وغنينا في حضوره كالمجوس
لا أبكي على أحد، بل أبكي على أنفسنا
إذ أننا لم نعد لائقين بمقامك"[3]
"بكيت بكاء مرا أمام الله ذات مرة
أتساءل لماذا المسلمون في خزي وعار
ويجيب النداء: ألا تعرف أن هؤلاء القوم
لهم قلوب وليس لهم حبيب"[4]

3- المسلم الحق في نظر إقبال: بعد أن قدم لنا إقبال صورة واضحة عن مسلم هذا العصر، يقدم لنا أيضا الصورة التي يأمل أن يكون عليها المسلم حتى يرقى إلى مقام الشهادة على الناس، وهي صورة تمثل المسلم الحق الذي بين جوانحه ذات تتقد حيوية ونشاطا، يقول إقبال في هذا الشأن :

"جسد المسلم متين
وجهه يملؤه الإحكام والصرامة

1- الزنار ما يلبسه البرهمن ويشير إقبال هنا إلى الإسلام الشكلي.
2- م ن، ص 194.
3- م ن، ص 195.
4- م ن، ص 196.

الطبيب الحكيم رأى من نظرته
بأن الذات داخله نشوانة"[1].

فالمسلم الحق جسده متين وعيناه تشعان نارا ونورا، وذاته متقدة متوترة، لا يعرف الفتور إليها طريقا، وهو زيادة على قوة ذاته فهو صاحب عزم وإصرار، قلبه عامر بالإيمان مقتد بالنبي صلى الله عليه وسلم، يقول إقبال:

"اقطع منازل سفرك كقمر جديد
واكبر في هذا الفضاء الأزرق
لو أردت مقامك في هذا العالم
فأوثق قلبك بالحق واسلك سبيل المصطفى"[2]

وحين يكون لمسلم على هذه الصفة من الإقتداء والإتباع فلن يترك أحدا يصنع مصيره، يقول :

" أخرج من الصدر تكبيرك
أخلط ترابك بأكسيرك
أمسك ذاتك واستمسك وعش طيبا
ولا تدع بيد أحد تقديرك"[3]

فالمسلم عند إقبال إنسان قوي العزيمة لا يرضى بالدون، وهو ذو همة عالية، يقول: "إنك أيها المؤمن لخليق بأن تنشد مقامك، وتتعرف فوق النجوم مكانك، فلا تكن كالطائر الحائر الذي يضل في سيره، وينشد طعامه من صيد غيره، لا تكن في فطرتك السامية، وفي اختيار مترلتك من الدنيا أقل من صغار الطير التي تختار بين فروع الأشجار مكان عشها ومقر وجودها. قم واخلق هذه السموات السبع مرة أخرى، واخلق العالم طبقا لمشيئتك ورغبتك، وتحرر من قيود الباطل"[4].

1- م ن، ص 193.
2- م ن، ص 211.
3- م ن، ص 211.
4- محمد إقبال، والآن ماذا تصنع يا أمم الشرق. ترجمة :محمود أحمد غازي والصاوي شعلان ط1 دار الفكر، دمشق: د.ت ص 43-44.

وإقبال بعد إيضاحه الصورة التي ينبغي أن يكون عليها المسلم لا يقف عند هذا الحد، بل إنه يوضح الطريق للوصول إلى مرتبة، النيابة الإلهية حينما يصبح "الإنسان الكامل" وبلوغه مقام "عبده".

4- طريق المسلم إلى النيابة الإلهية :إن وصول المسلم إلى حالة يكون فيها قوي الذات متحكما في نفسه ومصيره لا يتيسر إلا بطول جهاد يمر بمراحل ثلاث، وكل مرحلة لها ما يلزمها من الالتزام والانضباط وهي:

أولا الطاعة: وهي أول مقام لابد أن يتحقق منه المسلم دون تضجر أو شكوى من شدة الشرع، فالطاعات بالنسبة للمؤمن هي سبيل حريته وانطلاقه في رحاب الأفلاك وتسخيرها، يقول في هذا الشأن مخاطبا المسلم:

"فاحمل الفرض قويا لا تهاب وارجون من عندَه حسنُ المآب
أجهدن في طاعة يا ذا الخسار فمن الـــجبر سيبدو الاخـــتيار
سخَّر الأفـــلاك في هـــمتـــه من ثوى في القيد من شـــرعته
شدةً في شرعنا لا تـــشكون وحدود المصطفى لا تعـــدون"[1]

ثانيا ضبط النفس: بعد أن يوطن المسلم نفسه على العبادات والتزام الشرع، يرتقي إلى مقام آخر وهو ضبط النفس، فالنفس ركب فيها الخوف والحب، خوف الموت وحب المال والولد، والمسلم إذا لم يستمسك بلا إله إلا الله، غلبه البدن الذي هو مركب الأهواء والفتن، وصار قارورة زجاج بين حجرين؛ خوف الموت وحب الدنيا، يقول في هذا:

"كل مَن بالحق أحيا نفـــسه لا ترى الباطل يحني رأســـه
معرض عما سوى الله الأحد يضع السكين في حلق الولد"[2] [3]

ويقول في موضع آخر:

1- الأسرار والرموز ص 37-38.
2- يشير إلى إبراهيم عليه الصلاة والسلام.
3- الأسرار والرموز ص 40.

درة التوحيد فاحفظها الصلاة حجك الأصغر فاحفظها الصلاة
في يد المسلم هذا الخنجر يقتل الفحش به والمنكر
يفتك الصوم بجوع وصدى ضابط بالقسط هذا الجسد
وينير الحج قلب المؤمن هجرة الأهل به والوطن
بالزكاة العابد المال ادكر علمت حب المساواة البشر
تكثر المال وشحا تمحق "لن تنالوا البر حتى تنفقوا"
تلك أسباب بها تستحكم إن يكن في القلب دين محكم
اقو يا مؤمن بالله القوي تحكمن في ذلك البكر الأبي[1]

بعد هذا يصل المسلم إلى مرحلة النيابة الإلهية، يقول إقبال في هذا:

"نائب على الأرض سعيد حكمه في الأرض خلد لا يبيد
هو بالجزء وبالكل خبير وبأمر الله في الأرض أمير"[2]

هذه هو المسلم الذي يريده إقبال، إنسان لا هو على شاكلة إنسان الغرب المغرق في الحس، ولا هو على شاكلة الصوفي الغارق في الفناء[3]، هو إنسان قلبه عامر بالإيمان، حاز أسباب القرب من الله في ترقيه الروحي، وفي ترقيه المعرفي والمادي، إنه الإنسان الكامل الذي يخشى ظهوره الشيطان والكافر.

1- م ن ص 40.

2- م ن ص 4.

3- يرى إقبال أن التصوف الداعي إلى الفناء تصوف غريب عن الإسلام وهو تصوف نشأ ملهما بالتيارات الصوفية غير الإسلامية منها التصوف الفدانتي، وهذا التصوف الغريب عن الإسلام يسميه إقبال التصوف الفارسي أو التصوف العجمي، وأكبر ممثل لهذا اللون من التصوف في رأيه هو حافظ الشيرازي (ت791 هـ/1389م)، حيث قال في شأنه: احذر حافظا أسير الصهباء، فإن في كأسه سم الفناء (...) فر من كأسه فإن فيها لأصحاب الفطن حذرا كحشيش لأصحاب الحسن انظر: عبد الوهاب عزام، إقبال سيرته فلسفته وشعره ص 62.